



فيصل الحضرمي

## نحو قيم ونظرية أخلاقية تعددية

يناقش الكاتب حسين علي حسن في مقالته المنشورة بمجلة التفاهم تحت عنوان «القيم والأخلاق في الفلسفة المعاصرة، الحاجة لصوغ نظرية أخلاقية جديدة قادرة على طرح حلول ناجعة لمختلف المواقف الملتبسة أخلاقياً، لا سيما تلك المواقف الجديدة التي لم يكن لفلاسفة الأخلاق عهدُ بها من قبل، كتلك المرتبطة بمفهوم «قدسية الحياة» و«رفاهية المريض»، على سبيل المثال.

بخارية. ليس ثمة أمل في شفاء هذه الفتاة، وهي الآن تغذى بالأنابيب، وتعتمد بشكل كلي على عناية الممرضات اللواتي يقمن بتغيير وضعيتها من وقت لآخر لحماية جسدها من التقرحات. هذه الحالة التي فطرت قلب أبويها تمثل تحدياً للطاقم الطبي الذي فشل في إقناع الأبوين بأن ابنتهما لن تتمكن من استعادة حياتها الطبيعية.

والحالة الثالثة هي حالة طفل حديث الولادة مصاب بمرض مستعص يصيب نصف الدماغ. الأطباء المشرفون على علاج هذا الطفل يرغبون في إيقاف الغذاء عن الطفل إلى أن يموت كيلا يعيش مزيداً من الآلام، في حين تصر الأم ذات الستة عشر عاماً على العودة إلى المنزل مع طفلها. أما الحالة الرابعة فتتعلق بمراهق أصيب بسرطان الحلق عندما كان في الثانية عشرة من عمره. وبعد علاجه بواسطة الأشعة المضاعفة والعلاج الكيميائي تحسن بشكل كبير. إلا أن وضعه ساء بعد عام واحد ما دفع الأطباء إلى إجراء عملية جراحية له. وبعد سنتين من استقرار حالته الصحية عاوده السرطان مرة أخرى بحلول عيد ميلاده الخامس عشر، وكان الخيار الوحيد المتاح لعلاج حالته هو تعريضه للعلاج الكيميائي. وجد الطاقم الطبي نفسه عاجزاً أمام الرغبات المتعارضة للمراهق ووالديه؛ فالتفتي بفكرة العلاج ويصر على تركه يموت في سلام، بينما يطالب الوالدان بالمحافظة على حياة ابنتهما.

يعتقد الكاتب أن تطوير نظرية أخلاقية تعددية pluralistic moral theory من شأنه التصدي لهذه الحالات الأربع ومثيلاتها. هذه النظرية تختلف عن النظريات الأخلاقية التقليدية، الواحدية والمنغلقة على نفسها، في كونها تأخذ بعين الاعتبار حقيقة وجود معايير أو مبادئ خلقية عامة قد تتصارع فيما بينها، مثل معايير المسالمة، والإحسان، والاستقلال الذاتي، والعدالة، والمنفعة، والإخلاص، والأمانة، والخصوصية. ويخلص الكاتب إلى أنه بدلاً من الأخذ بنظرية أخلاقية قائمة على معيار واحد، فإن الأجدي تضمين كافة المعايير الأخلاقية في نظرية أخلاقية تعددية تراعي استقلالية كل واحد من هذه المعايير، من ناحية، وعدم كفايته لاقتراح حلول ناجعة للحالات الملتبسة، من ناحية أخرى.

ينجم عنه خيرٌ كثير، يشكل تحدياً للنفعيين القائلين بسيادة مبدأي الألم واللذة على كل ما عداهما من اعتبارات، كما تشكل الأمثلة التي تمنح الأولوية للحقوق الفردية أو نتائج الأفعال تحدياً مماثلاً لنظريات الفضائل. وبحسب الكاتب، فإن اصطباغ أحكام القيمة بصيغة الذاتية حدا بالفلاسفة إلى تبني مذاهب أخلاقية شخصية ينتهج كل منها خطأ مختلفاً عن غيره من المذاهب، متناسين وجود حقيقة أخلاقية مستقلة عن أحكامهم التقويمية تتجلى في قواعد السلوك الحياتية التي تحكم تصرفات الناس بعيداً عن آراء الفلاسفة ومذاهبهم. ويعرف الكاتب القيم الإنسانية بأنها تلك المثل التي يحضنها البشر الكثير من التقدير، ويتمنون امتلاكها ويسعون إلى تحقيقها طلباً للخير. ويضيف بأن هذه القيم تتصل بالجانب غير المادي من وجودنا، أو ما يعرف بالحياة الروحية، في مقابل الجانب البيولوجي أو الطبيعي الذي يتصل بشؤون البقاء على قيد الحياة.

بعد ذلك يتطرق الكاتب إلى سؤال مشروع حول الحاجة إلى نظرية أخلاقية جديدة تتلاءم ومستجدات الحياة المعاصرة، بالضد من الآراء القائلة بعدم ضرورة البحث عن نظرية أخلاقية جديدة، وتلك التي تذهب إلى أن بحثاً من هذا القبيل لن يكتب له النجاح باعتبار أن أي نظرية في الأخلاق لن تستطيع الاضطلاع بالمهام التي رسمتها لنفسها. وبغية التدليل على بطلان مثل هذه الآراء، وعلى الحاجة إلى إعادة النظر في النظريات الأخلاقية القائمة، وصياغة نظرية جديدة قابلة للتطبيق، يورد الكاتب أربع حالات طبية تشكل أمثلة بارزة على المستجدات التي طرأت على حياة الإنسان المعاصر.

الحالة الأولى هي حالة أم في الثامنة والأربعين من عمرها، أدخلت المستشفى إثر تعرضها لكسر مضاعف في قصبه الساق بعد أن صدمتها حافلة. وقد وقعت فريسة للاكتئاب فور دخولها المستشفى ما دفعها لرفض الأكل والامتناع عن الكلام والرغبة في الموت. ولم يدر الطاقم الطبي ما إذا كان عليه إجبارها على الأكل أم احترام رغبتها في عدم مواصلة الحياة. والحالة الثانية تمثل فتاة في الثامنة والعشرين من عمرها ترقد في غيبوبة كاملة منذ ثلاث سنوات بسبب إصابة بالغة في الرأس تعرضت لها في حادث دراجة

ويستهل الكاتب مقالته بتعريف الأخلاق على أنها «مجموعة القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة من الحقب التاريخية»، في إشارة إلى النسبية المزدوجة للأخلاق من حيث اختلافها من مجتمع لآخر، ومن زمن لآخر. ويضيف الكاتب أن الفلاسفة رفضوا النظرة الوصفية التي تتناول الأخلاق عبر دراسات تقريرية تكتفي بتحديد القواعد التي يحتكم إليها الإنسان في الواقع، وأنهم -بدلاً من ذلك- أكدوا على ضرورة دراسة الأخلاق دراسة معيارية تتوخى وضع «مثل أعلى» وتشريع «قانون خلقي» يكون بمثابة مرجعية يهتدي عبرها الإنسان إلى السلوكيات التي ينبغي عليه نهجها فيما يعترضه من مواقف.

وتتضمن كل واحدة من النظريات الأخلاقية ذات الطابع المعياري أو التقويمي معايير أخلاقية محددة، وهي تتباين فيما بينها تبايناً كبيراً. ومن أبرز هذه النظريات نظرية الأمر الجازم عند كانط، ونظرية الحقوق الطبيعية عند جون لوك، ونظريات الفضائل بدءاً من أرسطو، ونظريات العقد الاجتماعي عند هوبز وآخرين. تذهب نظرية الأمر الجازم إلى أن الأمر نوعان: أمر جازم يحتمه الواجب على وجه الضرورة، وأمر مشروط يتوقف القيام به على ظروف معينة. فيما أكد جون لوك على وجود حقوق أولية للإنسان، وفي مقدمتها حق الحياة وحق الحرية وحق الملكية. من جهتها، تتحرى نظريات الفضائل تعريف الفضيلة، وبيان كيفية اكتسابها وطريقة انتهاجها في الواقع. أما نظريات العقد الاجتماعي فتذهب إلى أن البشر أنانيون بطبعهم، وأنهم لخسيتهم من الفوضى المترتبة على أنانية كل منهم فقد قرروا الدخول في عقد اجتماعي يلزمهم بطاعة الحاكم والامتثال لأمره.

وفي حين يرى الكاتب أن هذه النظريات الأخلاقية تستمد قوتها من استنادها إلى معيار أخلاقي شرعي لا غنى للإنسان عنه في المواقف الحياتية، إلا أنه يلفت النظر إلى الصعوبات التي تواجه هذه النظريات، والتي تتمثل أساساً في عجزها عن توضيح المعايير الأخلاقية التي تقوم عليها توضيحاً كافياً، وفي انكفاء كل منها على نفسها، وفشلها في التصدي للأمثلة المعاكسة التي تقوم على معايير أخلاقية مختلفة. ويضرب الكاتب مثالين اثنين لتدعيم وجهة نظره؛ فمعيار حقوق الإنسان، باعتباره مثلاً معاكساً قد